النص السردي التخييلي
مقاربة تداولية
المقامة البغدادية للهمذاني أنموذجا

محمد نجيب العمامي*

للّغة قوانينها الخاصّة ولكنّ هذه القوانين غير كافية لفهم الكلام[1]. فاستعمال اللّغة وإنتاجُ الجمل وفهمُها تستدعي معارف غير لسانيّة وتقتضي مسارات استنتاجيّة[2]. وهذا يُكسب التّداوليّة[3] سواء بوصفها "دراسةَ العلاقات الموجودة بين اللّغة ومستعمليها"[4] أو بصفتها "دراسةَ الأعمال اللّغويّة"[5] أهمّية في فهم الكلام وتأويله. وقد أغنت البحوث التّداوليّة فروعا من العلوم الإنسانيّة واستُخدمت مكاسبُها في مقاربة النّصّ الأدبيّ ووُظّفت في دراسة التّخييل السّرديّ رغم ما أبداه بعض فلاسفة اللّغة من احتراز على خطاب التّخييل عامّة[6]. وسننظر إلى نصّ التّخييل بوصفه أساسا تواصلا وإلى فعل القراءة بصفته جوهريّا علاقة حواريّة[7].

ورغم أنّ التّداوليّة اليوم تداوليّات وأنّ نظريّة تداوليّة متكاملة لمقاربة النّصّ السّرديّ التّخييليّ لم تُنجز بعد فسنحاول، انطلاقا ممّا توفّر لنا من زاد نظريّ، تحليل مقامة من مقامات الهمذاني. وهذه المقامة، كما هو معلوم، من الأدب المكتوب. و"كلّ تواصل مكتوب هشّ بما أنّ المتقبّل لا يشاطر المتكلّم مقام تلفّظه"[8]. وقد شبّه أيكو (Eco) طرح كتاب على النّاس بإلقاء قارورة في بحر[9]. فثمّة انعدام تساوق[10] بين موقعي التّلفّظ والتّلقّي[11] لا سبيل إلى إنكاره. ومع ذلك فبالإمكان مقاربة المكتوب تداوليّا. فالقارئ متلفّظ مشارك[12] ماثل في خطاب المؤلّف[13] و"النّصّ منتوج مصيره التّأويليّ يجب أن ينتمي إلى آليته[14] التّكوينيّة الخاصّة"[15]. ومن هذا المنظور فالمؤلّف والقارئ استراتيجيّتان نصّيّتان[16] لا كائنان تجريبيّان.

وقد اخترنا من مقامات الهمذاني المقامة البغداذيّة[17]. وأوّل ما يطالع قارئها منها العنوانُ. وقد جاء مركّبا نعتيّا طرفه الأوّل يحيل على جنس أدبيّ[18] يخضع لقواعد تلفّظيّة وإكراهات بنائيّة مخصوصة من المفروض أنّها جزء من موسوعة القارئ المتعاون[19] أمّا الطّرف الثّاني فيحيل على مكان يرجّح القارئ، اعتمادا على كفاءته

* - باحث وأكاديمي تونسي.

الموسوعيّة[20] وتحديدا على معرفته بمقامات الهمذاني الأخرى، أنّه مكان الأحداث المرويّة. فبين مقامة الهمذاني وقارئها عقد قراءة تكوّن خصائص الجنس بنودَه الكبرى. ولذلك فالقارئ غالبا ما ينتظر تحقّق ما توقّع في مستوى مكوّني العنوان ومستوى البنى الملزمة[21].

ومن بنود العقد الأجناسيّة أو من مقتضياته[22] أنّ المقامة تتركّب من سند ومتن. وقد جاء السّند "حدّثنا عيسى بن هشام قال" عملا لغويّا[23] يُعرف بالتّقرير. وفي هذا التّقرير إسناد لموضوع الحديث إلى مصدره من شأنه أن يخلق ما يسمّيه بعضهم بالمشاكلة التّداوليّة[24]. وبما أنّ للتّقرير مقتضيات منها أن تتوفّر فيه شروط نجاح كاعتقاد ذات التّلفّظ في صحّة ما تقرّره وقدرتها على إثبات صحّته فإنّ عدمَ وجود شخص تاريخيّ يحمل اسم "عيسى بن هشام" وانتماءَ النّصّ إلى جنس المقامة المندرج في خطاب التّخييل يكشفان أنّ التّقرير هنا مموّه أو مصطنع. فذات التّلفّظ الحقيقيّة تنجز، كما يرى جينات، عملا لغويّا غير مباشر قد يكون طلبا من قبيل: "تخيّلوا أنّ عيسى بن هشام حدّثنا فقال..." وقد يكون تصريحا[25] نصّه: "أقرّر تخييليّا أنّ عيسى بن هشام..." بل قد يكون تقريرا آخر جدّيّا مثل: "أتمنّى عن طريق هذه المقامة أن أنشئ في أذهانكم حكاية تخييليّة حدّثنا عنها عيسى بن هشام فقال..."[26] إلاّ أنّها وهي تنجز ذلك العمل تنجز، في الواقع، عملا إنجازيّا هو إعلان بداية السّرد الحقيقيّة.

وتخلق عبارة "حدّثنا عيسى بن هشام " مجال تناصّ مع الحديث والخبر. وترسم، في الآن نفسه، بعض حدود اختلافها مع هذين الجنسين من خلال إسناد الحديث إلى شخصيّة لا حياة لها خارج النّصّ واندراجها في خطاب التّخييل. وفي المقابل تُوجد لها صلة نسب مع معلنات سرد من قبيل: "زعموا أنّ" و"بلغني أيّها الملك السّعيد" أو "كان يا ما كان، كان في قديم الزّمان وسالف العصر والأوان". فتهيّئ القارئ لنوع خاصّ من التّقبّل.

عند هذا الحدّ ينتهي الحضور الصّريح لمقام تعامليّ طرفاه الرّاوي الأوّليّ[27] والقارئ. ويبدأ مقام ثان طرفاه المعلنان عيسى بن هشام والرّاوي الأوّليّ. فيتكلّم عيسى: "اشتهيت الأزاذ وأنا في بغداذ وليس معي عقد على نقد. فخرجت أنتهز محالّه فأحلّني الكرخ." فينجز، أوّل ما ينجز، عملا لغويّا يهيمن على كلّ سرد هو عمل التّقرير. وهذا التّقرير حقيقيّ هذه المرّة إذ تتوفّر فيه كلّ شروط النّجاح. فالشّخصيّة المتخيّلة هي التي تروي حقائق متعلّقة بتجربتها في العالم الممكن الذي تعيش في ركن منه[28].

إلاّ أنّ القول إنّ العمل المضمّن في القول هو التّقرير قد لا يفيدنا كثيرا إذا ما اقتصرنا على هذا المستوى من التّحليل. فالنّصّ نسيج من أقوالٍ يجهر بها ومن أقوالٍ مضمّنة فيه مضمرة. وهو "آلة كسولة تتطلّب من القارئ عملا تعاونيّا متواصلا لملء فراغات المسكوت عنه أو ما قيل وبقي محلّه شاغرا"[29].

ويجهر ملفوظ عيسى في مستوى المعطى أو المحتوى القضويّ[30] أنّ عيسى كان لحظة الحدث موجودا ببغداذ وأنّه اشتهى الأزاذ. ويدلّ استخدام لفظة "الأزاذ" التي قد تبدو غريبة على أنّ عيسى يفترض أنّ كفاءة مخاطَبه اللّغويّة تمكّنه من فهمها. أمّا من يجهل دلالتها فبإمكانه معرفتها معرفة تقريبيّة بفضل السّياق المقاليّ[31]:

"اشتهيت، ليس معي عقد على نقد". وهو مدعوّ إلى القيام بعمل استدلاليّ من قبيل: "بما أنّ الأزاذ ممّا يُشتهى وممّا يباع ويُشترى فهو إذن بضاعة عزيزة".

ومن المسكوت عنه في هذا الملفوظ وما هو في الواقع مقتضيات دلاليّة[32] أنّ عيسى الذي كان صاحب مال كان داخل مكان ما لا يتوفّر فيه الأزاذُ موضوعُ الشّهوة[33] وأنّه رحّالة ليست بغدادُ سوى محطّة من محطّات أسفاره. ويبدو أنّه رغب عن تحديد هذا المكان مراعاة لقانون الإفادة أو الفائدة[34] ويقتضي ألاّ يخبر المتكلّم متلقّي خطابه إلاّ بما يعتقد أنّه يفيده ويثير اهتمامه[35]. ويمكن للقارئ أن يستنتج اعتمادا على قاعدة العلاقة أو الملاءمة[36] وبناء على مواضعات السّرد في جنس المقامة أنّ عيسى بصدد بناء السّياق المرجعيّ[37] للعالم الذي يصوّره. فقد حدّد الشّخصيّة والمكان والزّمان الذي هو، على الأرجح، النّهار. ويستدعي عيسى معارف مخاطَبه المباشر الجغرافيّة. فهو يكتفي بذكر بغداد والكرخ دون توضيح أو تفصيل.

إلاّ أنّ لخطابه أكثر من متلقّ. وإمكانية جهل أحد المتلقّين بغداد والكرخ واردة. لذلك فتحسّبا لأيّة ثغرة قد تخلّ بالتّواصل يقول النّصّ إنّ بغداذ مكان: "كنت ببغذاذ" وأنّ مكانا آخر يقع فيه أو قريبا منه: "فأحلّني الكرخ". ومن خصائص المكان الثّاني توفّر الأزاذ فيه. ولكن لا شيء في الملفوظ يجزم بأنّه سوق. فالقارئ يقوم بعمليّة استنتاجيّة من قبيل: "عيسى خرج للحصول على الأزاذ في محالّه وخصّ بالذّكر الكرخ. وبما أنّه يُفترض أن يراعي قواعد الخطاب التي منها الحديث في صلب الموضوع وبما أنّه قرن حديثه عن الأزاذ بالكرخ. فالكرخ إذن مكان فيه الأزاذ. وممّا يزيد في رفع اللّبس وتوضيح المقصود من الكرخ السّياق المقاليّ وتحديدا لفظة "محالّه".

إنّ عيسى يقرّر. ولكنّه ينجز، في الآن ذاته، عملا آخر هو عمل السّرد. ومن هذه الزّاوية فإنّ جملته الأولى تضع القارئ أمام مفصل احتمالات[38]. وتدعوه إلى تنشيط بعض السّيناريوهات[39] التّناصّيّة[40] أو المشتركة[41] المستمدّة من مخزونه المعرفيّ. فماذا سيفعل عيسى ليصلح ما يعانيه من افتقار ؟ هل سيكتفي من الأزاذ باشتهائه أم هل سيسعى إلى تلبية حاجته إليه ؟ الأرجح أنّه سيسلك الطّريق الثّانية. وإلاّ فما الدّاعي إلى ذكر الشّهوة أصلا ؟ أو ليس من قوانين الخطاب أن يكون الكلام متّسقا وألاّ يُتحدّث إلى المخاطَب إلاّ بما يفترض أنّه يهمّه ؟ أو ليس ما يهمّه هو أنّ الأزاذ، وقد ذُكر، لم يعد مجرّد رغبة وإنّما صار، على الأرجح، موضوع حكاية لها بداية معروفة ولها امتداد يصل بها إلى منتهاها؟

ويأتي الجواب في الجملة الثانية. وفيه يتواصل الحديث عن الأزاذ وتتأكّد الرّغبة في إصلاح الافتقار. فيكون المفصل الثاني: هل الكرخ مكان يُتصدّق فيه بالأزاذ أم هل هو سوق ؟ هل سيقترض عيسى مالا ؟ هل سيتسوّل أم هل سيحتال ليحصل على طلبته ؟. إنّ كل جواب عن هذه الاحتمالات هو نواة لحكاية محتملة.

وتنمو الحكاية. فيتغيّر السّياق المرجعيّ بظهور شخصيّة جديدة على مسرح الأحداث. وقد احتلّت مكانا لها في العالم المتخيّل لا لمجرّد أنّها وقعت تحت طائلة بصر عيسى فحسب بل لأنّها تنتمي إلى البيئة الجغرافيّة نفسها التي يحيل عليها المكانان "بغداذ" والكرخ" ونعني البيئة العراقيّة. ويبقى السّؤال كيف تأكّد عيسى أنّ القادم

سواديّ. هل هي ملامحه ؟ أم هل هو لباسه ؟ أهي الطريق التي كان يسلكها أم هي كلّ ذلك أو بعضه ؟ يسكت عيسى عن كلّ هذا فيخلّ بقاعدة الكمّ[42]. فيستنتج القارئ أنّ في الإخلال بهذه القاعدة احتراما لقانون الإفادة ففي الإجابة عن مثل هذه الأسئلة صرف لنظر القارئ عن خيط الحكاية الرّئيس في جنس أدبيّ قصير يرفض الإسهاب وتشعّب الأحداث وتعدّد الحكايات. وبناء على القاعدة نفسها يستخلص القارئ أنّ في ذكر عيسى لهذه الشّخصيّة دليلا على ما ستؤدّيه من دور محتمل في رحلة تحقيق الطّلبة التي انطلقت بعد. وهو دور يدعمه الاكتفاء بنسبة الرّجل إلى سواد العراق وبوصف فعلين من أفعاله: " فإذا أنا بسواديّ يسوق بالجهد حماره ويطرّف بالعقد إزاره".

أنجز عيسى عمل تقرير، ولكنّه قال دون أن يقول علانية إنّ هذا الرّجل جاء من مكان بعيد وهو مرهق ولعلّه جائع. وهو، إلى ذلك، يملك مالا يخاف عليه من لصوص بغداد ومحتاليها. ولعلّ من زار بغداد من معارفه أوصاه بالمحافظة على ماله. ولعلّه، وهو "يطرّف بالعقد إزاره" على مرأى من عيسى، كان بصدد تنفيذ الوصيّة. ويدلّ حرصه على سذاجة قد تكلّفه غاليا. فهو سواديّ ريفيّ له "عقد على نقد" في حين أنّ عيسى من المقيمين، ولو ظرفيّا، بالمدينة وليس معه "عقد على نقد". وهكذا تحاك خيوط الحكاية لبنة لبنة. وينمو الخطاب متّسقا متماسكا.

ويجد القارئ نفسه أمام مفصل احتمالات جديد: فما هو نوع العلاقة التي سيقيمها عيسى مع السّواديّ ؟ أيكون قد وجد ضالّته في هذا الرّيفيّ المرهق الجائع السّاذج ؟ ألا تنبئ هذه الصّفاتُ بأنّ السّواديّ سيكون فريسة سهلة لأمثال عيسى ؟ لعلّ القارئ لا يفاجأ كثيرا بقول عيسى: "فقلت: ظفرنا واللّه بصيد". ولا بأنّه لم يكيّف مقوله بأداة من أدوات التّكييف من قبيل "لعلّ وقد وربّما وغيرها". ولكنّه يتساءل: ما الذي جعل عيسى ينجز عمل القسم ومن أين أتته كلّ هذه الثّقة ؟ ألا يكون كاذبا ؟ ألا يمكن أن يحدث أمر ما يحول دون تحقّق مشروعه ؟

إنّ من مقتضيات التّواصل أنّ إنجاز أيّ عمل لغويّ مرتهن باجتماع شروط نجاحه. وبناء على هذا المقتضى التّداوليّ يستخلص القارئ أنّ عيسى يعتقد في ما يقول. فيبحث في معارفه الموسوعيّة عن تأويل مناسب لهذا التّقرير. فينجده سيناريو مشترك وآخر تناصّيّ مطابق له. هو سيناريو "الأعرابيّ في المدينة" أو بلغتنا اليوم "البدويّ في العاصمة". فيرتسم مقام إيديولوجيّ يتواجه فيه عالم المدينة وعالم الرّيف. وتتوضّح ملامح سيناريو الاحتيال. وترتسم نتيجته في الأفق. ورغم القسم فإمكانية تخييب أفق التّوقّع تبقى، على ضعفها، قائمة. فيتولّد مفصل احتمالات قادر على توليد عديد القصص انطلاقا من اللّقاء المرتقب بين الشّخصيّتين. وفي انتظار تبيّن موقف عيسى راويا من القواعد المستقرّة والتي تكوّن جزءا من كفاءة القارئ الموسوعيّة فإنّ السّؤال الذي يطرح في التّوّ هو كيف سيحتال عيسى على السّواديّ ؟

ويختفي مقام عيسى / الرّاوي الأوّليّ ومقام الرّاوي الأوّليّ / القارئ دون أن يغيبا. ويطفو على سطح النّصّ مقام الشّخصيّتين عيسى والسّواديّ. ويُستهلّ بمبادرة عيسى بالكلام. وقد جاء تدخّله طويلا وضمّ أعمالا لغويّة

متعدّدة هي التّحيّة "حيّاك اللّه" والتّكنية "أبا زيد" والسّؤال "من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ؟ ومتى وافيت ؟" والدّعوة "هلمّ إلى البيت". إنّ التّحيّة سلوك اجتماعيّ له دور علائقيّ. فهي تذيب الجليد بين طرفي التّفاعل القوليّ وتمهّد للحوار بينهما[43] وتخفّف من حدّة المساس بالوجه السّلبيّ[44] للمخاطَب أو هي تلطّف من حدّة انتهاك حياضه. وقد ألحّ عيسى على هذا الدّور بتكنيته السّروجيّ. فالكنية هنا تُكسب المخاطَب هويّة. ومن مقتضياتها التّداوليّة، أي ممّا تقوله دون أن تُصرّح به، إحالتُها على مجموعة من العلاقات مع الفرد المُكنّى. فتؤدّي عمل تأثير بالقول[45] هو الطّمأنة بخلق نوع من الألفة بين المتكلّم والمتكلّم إليه. وهو عمل تشاركها في إنجازه أعمال السّؤال الثّلاثة وعمل الدّعوة.

لقد طرح عيسى سؤاله الأوّل ولم ينتظر له جوابا بل أردفه بثان وثالث. ومن مقتضيات عمل السّؤال التّداوليّة أن يكون السّائل جاهلا بما يسأل عنه راغبا في تلقّي الإجابة[46]. ولكنّ خطّة عيسى تقتضي أن لا ينتظر الجواب. فهو يردّد قوالب اجتماعيّة تقتضي معرفة مسبقة بين المتخاطبين. وهو يسعى من خلال ذلك إلى تحقيق الإيهام بأمرين أوّلهما الامتثال للأعراف الاجتماعيّة في مقام لقاء من تربط بينهم سابق معرفة وثانيهما التّمهيد للدّعوة التي تفترض بدورها أسبابا وجيهة منها ما تكفّلت به التّحيّة بمكوّناتها من كنية وأسئلةٍ تُطرح على المعارف من الأشخاص. ومنها ما يقدّمه السّياق المرجعيّ. فعيسى مقيم والسّروجيّ وافد جديد على المدينة ولا مقرّ له فيها معلوما بعد.

لم يرفض السّروجيّ محاورة عيسى. فرغم أنّ أمرا ما بدا له غير عاديّ في ما وُجّه إليه من كلام فإنّ خوفَه على وجهه الإيجابيّ[47] ومراعاتَه وجهَ مخاطِبه السّلبيّ حتّما عليه الرّدّ على التّحيّة ولو ردّا جزئيّا. فمن مبادئ التّعاون في الحوار ومن مقتضياته التّداوليّة أنّ التّحيّة توجب ردّا والسّؤالَ يفرض جوابا.

ولكنّ السّروجيّ لم يردّ على أسئلة عيسى. ولم يُنكر، في الآن نفسه، معرفته به. وقد يكون خامره شكّ حول معرفة عيسى له. وقد يكون ظنّ أنّ عيسى يعرفه ولكنّه نسي اسمه. ولذلك اكتفى بعمل النّفي "لست بأبي زيد" وعمل التّقرير "ولكنّي أبو عبيد". وهذا الرّدّ الجزئيّ لا يعني أنّ أعمال السّؤال كانت أعمالا فاشلة[48]. فالأرجح أنّ نجاحها الكامل معلّق لأنّه مرتهن بتثبّت السّروجيّ من أنّ عيسى لم يكن مخطئا في تحديد هويّته.

انطلق الحوار متعثّرا. ولكنّ ردّ فعل السّروجيّ دفعه في الاتّجاه الذي يحبّذه عيسى ويسعى إليه. فاستغلّه ليحصر كلامه في موضوع العلاقة القديمة الذي يمثّل لحظة مهمّة في خطّته. فأنجز سلسلة من الأعمال اللّغويّة هي التّقرير والدّعاء والسّؤال. فأكّد الخطأ وبرّره بالنّسيان ودعّم المعرفة السّابقة بالسّروجيّ بالسّؤال: كيف حال أبيك ؟ أشابّ كمهدي أم شاب بعدي ؟ وللسّؤال هنا وظيفة حجاجيّة إذ يهدف إلى إقناع الابن المتردّد[49] بمعرفة بالأب سابقة. وهذه المعرفة ليست معطى من معطيات خطاب عيسى وإنّما هي مضمّنة فيه من باب المقتضى. وللمقتضيات، كما تقول أوريكيوني، فائدة استراتيجيّة إذ هي حيلة لغويّة تحرج المتقبّل إحراجا مضاعفا [...] ولها وظيفة تداوليّة هي سجن الطّرف المقابل في إطار حجاجيّ لا يمكن إلاّ أن يقبله. وإذا ما رفضه فإنّه يرفضه في جو

سجاليّ مشحون[50]. وهو ما يجعله غالبا يتردّد في اللجوء إلى الرّفض[51]. وقد أثمرت أعمال عيسى اللّغويّة وأدّت المنتظرَ منها. وهو عمل تأثير بالقول يمكن تسميتُه بزرع الثّقة في نفس السّواديّ. وفعلا فقد زال شكّه وانخرط في الحوار طبقا لخطّة عيسى. وذلك بإنجازه عملي الجواب والرّجاء: "لقد نبت الرّبيع على دمنته وأرجو أن يصيّره اللّه إلى جنّته."

صدّق السّواديّ أقوال عيسى ووثق به. ولكنّ عيسى كان يحتاج إلى دليل أكبر على هذه الثّقة. فكان ردّ فعله على سماع موت الأب حركة شبيهة بحركة من مات له عزيز إلى النّفس قريب. فانقلبت الأدوار. وأصبح المعزّي معزًى والمعزّى معزّيا. وازدادت صورته إشراقا لدى مخاطبه. لقد ضيّق عيسى الخناق على الرّجل إلى أن تأكّد من أنّه أسلس له القياد. فعاد مباشرة ودون أيّ تمهيد إلى غرضه الأوّل وهدفه الأساسيّ. فجدّد الدّعوة منجزا عملا مضمّنا في القول مباشرا هو التّخيير وعملا غير مباشر هو الإجبار. فقد حبّب إلى السّواديّ طعام السّوق ونفّره من طعام البيت أو كاد. واستغلّ السّياق المرجعيّ ليذكّره، من خلال عبارة "السّوق أقرب"، بما يعرف ويعاني، إرهاقه وجوعه. وأوحى إليه، في الآن نفسه، بطول المسافة التي تفصلهما عن البيت وبما يمكن أن ينجرّ عنها من انتظار ومزيد إرهاق. فأثّر فيه بالقول وأسال لعابه وأفقده القدرة على الكلام. فمال معه واثقا به مسلّما أمره له.

تركّزت تدخّلات الشّخصيّتين على موضوعي التّعارف والتّضييف. ووافق كلّ موضوع عملٌ لغويٌّ مباشر أكبر هو التّحيّةُ بالنّسبة إلى الأوّل والدّعوة بالنّسبة إلى الثّاني. وقد كوّنت عملَ التّحيّة أعمالٌ لغويّةٌ مباشرةٌ فرعيّةٌ متنوّعةٌ. ولكنّ مساهمة عيسى فيها أنجزت عملا مضمّنا في القول غير مباشر هو الخداع وعملي تأثير بالقول هما الطّمأنة والإقناع. ومن هنا نشأ سوء تفاهم خلقه عيسى ولعلّه سيسعى إلى تعميقه. فما دام سوء التّفاهم قائما فخطّته تسير حسب ما يريد لها ويشتهي. ومن زاوية التّلقّي يستدعي العملُ غيرُ المباشر سيناريو الاحتيال في حين يذكّر عملا التّأثير بالقول بسيناريو الضّيافة. فهل سيظلاّن متراكبين إلى نهاية المقامة أم هل سينفصلان ؟ وكيف ؟

إنّ التّفاعل القوليّ[52] مهما كان ودّيّا هو مجال مواجهة يسعى خلالها كلّ متكلّم إلى فرض الذّات واحتلال الموقع الأفضل وإلى الحفاظ على ماء الوجه وتأكيد الوجه الإيجابيّ. وهو سعي يتمّ في الحوار وبفضله. وقد خسر السّواديّ صراع الهويّات هذا. فعيسى تكلّم وحدّد وجهة الحوار وأنجز بالكلام والحركة من الأعمال ما يمكن أن يسير به قدُما نحو هدفه. أمّا هو فوجد نفسه، دون أن يشعر، مجبرا على الخضوع لخطّة عيسى وعلى تأدية الدّور الذي ينتظره منه. إنّ خسارتَه صراعَ الهويّات تجعل منه "صيدا" محتملا. وتلقي مزيدا من الضّوء على قسَم عيسى. وتُنزّل المواجهة بين الشّخصيّتين في المقام الإيديولوجيّ الذي بدأت ملامحه تظهر منذ ظهور الريفي وحماره على مسرح الأحداث الحضريّ. ونكاد نقول إنّ مآل الصّراع بين الطّرفين معلوم النّتيجة سلفا رغم أنّ إمكانية تلاعب الرّاوي بأفق انتظار المتلقّي تبقى قائمة.

أدّى الكلام المتبادل بين الشّخصيّتين ما عُهِد به إليه من أدوار. فاختفى مقامهما التّفاعليّ وعاود الظّهورَ المقامُ الذي طرفاه المباشران عيسى راويا مندرجا في الحكاية والرّاوي الأوّليّ. واستُهلّ بأعمال تقرير تتعلّق بدواخل السّواديّ قد يكون عيسى شخصيّةً استنتجها انطلاقا ممّا بدا له من ملامح الرّجل وسلوكه. ويستوقفنا تقريرا عيسى "وطمع ولم يعلم أنّه وقع". فهل يتراكب فيهما صوتا عيسى شخصيّةً وعيسى راويا ؟ فهل قال الأوّل في نفسه لحظة اللّقاء ونقل الثّاني قوله لحظة السّرد أم هل هو عيسى الرّاوي يتكلّم وحيدا بما أنّه يروي الحكاية بعد أن انتهت وقائعها ؟ الاحتمالان ممكنان. وقد نستبعد الثاني لسبب تداوليّ. فتحقّق هذا الاحتمال يعني أنّ عيسى راويا خرق قانونين من قوانين الخطاب هما قانونا الإخبار والاستقصاء[53]. ولكنّنا نعلم من جهة أخرى أنّ الخرق المعروف في علم السّرد بالاستباق ممارسة سرديّة قديمة. فلو كان عيسى الرّاوي هو المتكلّم لكان في ذلك خرقٌ لقوانين الخطاب وفي الآن نفسه احترامٌ لممارسة تكاد تكون من مواضعات السّرد إلى عهد غير بعيد. ومع ذلك نستبعد هذا الاحتمال استنادا إلى سائر مقامات الهمذاني التي تكشف أنّ الاستباق ليس من ممارسات راوي المقامات. وفي المقابل نرجّح الاحتمال الأوّل. وهو ترجيح يدعمه السّياق المقاليّ. فالتّقريران يذكّران[54] بقول عيسى: "ظفرنا والله بصيد".

إنّ خطاب عيسى خطاب تضليليّ أتى، إلى حدّ الآن، أُكله. ولعلّ ثقته في قدراته الذّاتيّة واعتقاده في نجاح خطّته ليس لهما علاقة كبيرة به شخصيّةً. فالأرجح أنّهما من صنع منشئ الرّاوي الأوّليّ. فاللّذان فوّض إليهما السّرد يصوغان حكاية وفق ترسيمة معروفة سلفا ترتبط شخصيّتاها الرّئيستان والصّراع بينهما بمقام إيديولوجيّ محدّد. ونجد أنفسنا ميّالين إلى تصديق عيسى. فليس لنا دليل على أنّه يكذبنا القول. فنتساءل: كيف سيقع السّواديّ ؟ وتتعدّد الاحتمالات وكلّ احتمال هو مشروع سرديّ قابل للتّنفيذ ولنا حرّية صياغته انطلاقا من معارفنا الموسوعيّة المشتركة والخاصّة.

ويأخذ عيسى بيد السّواديّ في سوق الأطعمة. ويعيدنا إلى مقام الشّخصيّات. فينقل نبذا من حوار مع الشّواء وصاحب الحلوى. وينجز أعمال تقرير لا تخلو من قيمة إخباريّة عن السّوق. ويتحدّث إلى الشّوّاء فينجز أعمالا لغويّة مباشرة هي الأمر: "افرِز لأبي زيد... ثمّ زن له... واختر له... وانضد... ورشّ... ليأكله أبو زيد هنيّا". وهي أعمال ناجحة بما أنّ الشّواء نفّذها عندما "انحنى على ساطوره...". ومن المقتضيات التّداوليّة لنجاح عمل الأمر، أيّ أمر، أن يكون للآمر سلطةٌ ما على المأمور وأن يكون الأمر قابلا للتّنفيذ والمأمور مستعدّا له قادرا عليه. ومن المقتضيات التّداوليّة لإنجاز عمل الأمر، في هذا المقام، أن يكون مع الآمر "عَقد على نَقد" وأنّ الشّوّاء، بحكم مهنته، يُؤمَر فينفّذ. ففي ذلك ازدهارُ تجارته ونموُّ ربحه وتأدية لدور اجتماعيّ قد يعاقب القانون من يمتنع عن القيام به.

تكلّم عيسى فأسمع الشّوّاءَ والسّواديَّ. فأنجز في علاقته بالشّوّاء أعمالا مضمّنة في القول مباشرة وأنجز في علاقته بالسّواديّ عملا غير مباشر هو عمل تأكيد الدّعوة. وأضمر في كلامه إليه معنى مهما هو "أنت ضيفي". وقد أكسبت الأعمال الأولى عيسى وضعَ الحريف المرتبطَ بسياق مقاميّ أو جدوليّ[55] مخصوص يمكن تسميته

بسياق المطعم. ومن مقتضياته التّداوليّة انخراط الحريف في طقس اجتماعيّ يتمثّل في التّحوّل إلى السّوق وطلب بضاعة ما والحصول على تلك البضاعة واستهلاكها وسداد ثمنها. وأكسبه العمل اللّغويّ غير المباشر وضع المضيِّف المرتبطَ بسياق مقاميّ له لدى العرب مكانة هو "الضّيافة".

ولكن لا السّواديّ ولا الشّوّاء يعرفان ما يعرف عيسى ونعرف. فليس مع عيسى "عقد على نقد". وبما أنّه معدَم فهو ليس حريفا حقيقيّا ولا مضيِّفا بالمعنى الحرفيّ للكلمة. وقد نجحت أعماله اللّغويّة لأنّ ما قاله صادف هوى لدى سامعيْه وجاء، في المقام الذي ورد فيه، مطابقا لما ينتظران. وساهم في نجاحها مقتضيان تداوليان. فالذي يطلب بضاعة لا بدّ من أن يكون معه مال كاف والذي يضيّف في السّوق يجب أن يكون قادرا على سداد ثمن ما يستهلك ضيفه. لذلك نفّذ الشّوّاء الأمرَ ولم يعد السّواديّ يعترض على تسميته بأبي زيد. وفي إصرار عيسى على ما اختاره من كنية للسّواديّ تأكيد لعدم معرفته السّابقة به وسخريّة منه. وقد يكون فيه اتّهاما له بأنّه تفطّن إلى حقيقة العلاقة بينهما ولكنّه فضّل تمثيلَ دور من يقرّ بهذه المعرفة السّابقة ما دامت توفّر أكلا لن يدفع ثمنه. وهذا يعني أنّنا شهود على مواجهة بين ممثّليْن لا نعرف كيف ستدور أطوارها اللاّحقة وإن كنّا نعلم سلفا أنّه قد لا يكون من المفيد طرح السّؤال "إلى من ستكون الغلبة ؟". فجوابه، ما لم يتلاعب الرّاوي الأوّليّ بأفق انتظارنا، ماثل في سائر المقامات. أو ليست تروي كلُّها "بطولاتِ" عيسى و"بطولاتِ" صاحبه أبي الفتح الإسكندريّ. أو ليس في سرد الحكاية الذّاتيّة ضربا من الغرور وادّعاء بأنّ هذه السّيرة جديرة بأن تُروى وأن تكون مثالا يحتذى به ؟[56]

لقد أجاد عيسى تمثيل دوري الحريف والمضيِّف. فتحكّم في الكلام وانصاع له الشّوّاء وصاحب الحلوى والسّواديّ. فأمر ووصف وقرّر وسمّى. وفي آخر المطاف اقترح وعلّل: "يا أبا زيد ما أحوجنا إلى ماء يُشعشع بالثّلج ليقمع هذه الصّارة، ويَفثأ هذه اللّقم الحارّة." صدّقه السّواديّ وبقي ينتظر الماء. فغاب مقام تعامليّ وطفا على السّطح المقام المتخفّي مقام الرّاوي الأوّلي وعيسى راويا. فيُخبر عيسى ويقرّر: "ثمّ خرجت وجلست بحيث أراه ولا يراني أنظر ما يصنع".. فيكشف أنّه لم يكن صادقا في اقتراحه وأنّ هذا الاقتراح وسيلة يتخلّص بها من دفْع ما أكله و"ضيفه".

لقد انسحب عيسى. فتحوّل من مضيِّف إلى شاهد على تبعات فعلته. وأنهى سيناريو الضّيافة وأشرك القارئ في توقّع مرحلة ما بعد الضّيافة. ويُفهم من المقتضى الدّلاليّ المضمر في قوله "خرجت " أنّ الأكل وما سبقه من كلام وما تلاه منه تمّا داخل محلّ لا نعرف إن كان واحدا أو اثنين. فالخروج تمّ من دكّان صاحب الحلوى. ولكنّ النّصّ لم يخبرنا عن خروج عيسى والسّواديّ من محلّ الشّوّاء. فهل المحلاّن واحد ؟ أيكون القارئ المثاليّ المندرج في النّصّ قارئا من معاصري الهمذاني تسمح له كفاءته الموسوعيّة بالإجابة عن هذا السّؤال ؟ وفي هذا الكلام أيضا فصل تامّ بين الضّيافة والاحتيال وتوضيح للعلاقة بينهما. فالأولى سبب إلى الثّاني ووسيلة. وفيه أخيرا حيلة سرديّة تجنّب اللّجوء إلى طرف آخر يروي ما حدث بعد انسحاب عيسى. ومن مقاصد تلك الحيلة التّمهيدُ لتعليق عيسى نفسِه على ما شارك فيه من أحداث سواء كان بطلا أو شاهدا متفرّجا.

إنّ انسحاب عيسى بعد أن أصلح الافتقارَ المولّدَ للأحداث يفتح البابَ أمام احتمالات بصدد سلوك السّواديّ تمثّل، في الواقع، دعوة إلى المتلقّي ليساهم في مواصلة الحكاية. وقد اختار الرّاوي أن يقوم السّواديّ إلى حماره فوضع المتلقّي حيال مفصل احتمالات. فماذا سيكون موقف صاحب الحلوى ؟ هل سيُرسل في طلب عيسى ؟ وهل سيترك السّواديّ ينصرف ؟ وإن اعترض سبيله فكيف سيتعامل معه ؟ هل سيتمكّن السّواديّ من الخروج من الورطة التي وضعه فيها عيسى أم هل سيكون صاحب الحلوى ضحيّة حريفيْه ؟ الاحتمالات كثيرة ولكنّ الرّاوي اختار الاحتمال الذي يخلق صداما بين صاحب الحلوى والسّواديّ.

إلاّ أنّنا نفاجأ بأنّ طرفي العلاقة الصّداميّة هما السّواديّ والشّوّاء. فأين اختفى صاحب الحلوى ؟ أيكون هو نفسه الشّوّاءَ ؟ هل سها الرّاوي أم هل هو يتوجّه إلى قارئ مثاليّ مدرَج في النّصّ يتمتّع بكفاءة موسوعيّة لا تتوفّر لنا ؟ إنّ من المقتضيات التّداوليّة أن يكون السّرد متماسكا متناسقا. وهذا يفترض أنّ الشّخصيتين واحدة. ولكن ألا يمكن أن يكون الرّاوي قد خرق قاعدة التّماسك والاتّساق ؟ لا أحد غير قارئ معاصر للهمذاني بمقدوره الإجابة عن هذا السّؤال.

لقد تغيّر السّياق. فتغيّرت علاقة الشّوّاء بالسّواديّ واستمدّ الأوّل من وضعه معتدى عليه قوّة ليمنع حريفَه من الخروج ولينجز من خلال الملفوظ "أين ثمن ما أكلت ؟ "عملين لغويين أحدهما مباشر وغير مقصود هو عمل السّؤال وثانيهما غير مباشر وهو الأمر بالدّفع. وقد تضمّن الردّ: "أكلته ضيفا" عملين أحدهما مباشر هو التّقرير وثانيهما غير مباشر هو الرّفض. فقد استند السّواديّ إلى مقتضًى تداوليّ ذي بعد اجتماعيّ يقول إنّ الضّيف لا يدفع. وبما أنّ لفظة "ضيفا" غامضة في المقام التّعامليّ حريف / تاجر فقد ولّدت لدى الشّوّاء ردّي فعل متكاملين أحدهما بدنيّ تمثّل في الضّرب واللّكم وثانيهما قوليّ جسّدته أعمال الأمر والسّؤال والنّفي والتّكذيب والشّتم. وقد استند الشّوّاء، بدوره، إلى مقتضى ذي طبيعة اجتماعيّة اقتصاديّة. فللسّوق أحكامها. ومنها أنّ من يقتني بضاعة أو يستهلكها عليه أن يدفع ثمنها وإلاّ عرّض نفسه إلى ما لا تريد. فالضّيافة ليست من مصطلحات السّوق ولا من قيمه.

استهلك السّواديّ ما انتقى له عيسى من مآكل فاخرة لا يطلبها إلاّ من كان ذا مال وفير أو من كان، مثل عيسى والسّواديّ، لا ينوي سداد ثمنها. فانتهى دورًا الحريف آمرًا والتّاجر مأمورًا منفّذا. وحانت ساعة الحساب. فانقلبت الموازين بين الطّرفين. فظهر مفصل احتمالات جديد. فكيف سيردّ السّواديّ الفعل ؟ هل سيقابل العنف بالعنف أم هل سيرفع أمره إلى ممثّلي المؤسّسة القضائيّة إن كانت موجودة أصلا ؟ وما هو دليله على أنّه أكل ما أكل ضيفا ؟ هل سيتدخّل روّاد السّوق لفضّ النّزاع أم هل سيتدخّلون لإذكاء فتيله ؟

لقد اختار الرّاوي استسلامَ السّواديّ وخضوعَه لمشيئة التّاجر. وأنجز أعمال تقرير تخصّ هيأةَ الحريف "الصّيد" وحركتَه وقولَه: "فجعل السّواديّ يبكي ويحلّ عُقَده بأسنانه ويقول: كم قلت لذاك القريد أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد". فتنشط ذاكرة القارئ السّياقيّة المقاليّة. فتحيله الحركة والقول إلى بداية الحكاية.

فيذكّره القول بردّ السّواديّ "لست بأبي زيد ولكنّي أبو عبيد" وتقابل حركةُ حلّ العُقَد بالأسنان حركةَ تطريف الإزار بالعَقد. فينقلب الضّيف مضيّفا. وتنتهي حكاية السّواديّ الذي قد يكون أراد الإيقاع بغيره فوقع. وقد وقع ودفع ثمن غفلته دون أن يتفطّن إلى أنّ أبا زيد شخصيّة من نحت خيال عيسى وإلى أنّ التباس الاسمين حيلة من الحيل المستخدمة للإيقاع به.

وينهي عيسى حكايته بخطاب صاغه شعرا ضمّنه أعمالا مباشرة هي الأمر والنّهي وعملا غير مباشر ليس هو التّبرير بقدر ما هو الإشادة بقيمة التّحيّل. ولا يتوجّه عيسى بهذا الخطاب إلى نفسه يهنّئها بالنّصر فحسب وإنّما يتوجّه به كذلك إلى من كان في وضع المعدَم زمنَ الازدهار الاقتصاديّ.

لقد تحرّكت الشّخصيات في فضاء إيديولوجيّ محدّد بالتّعارض بين أهل الرّيف والمدينة. وأُدير الصّراع بينها على قيمتين اجتماعيتين استخدمت إحداهما وسيلة إلى الأخرى. وبالعود إلى المرجع الكائن خارج النّصّ يتبيّن أنّ قيمة الضّيافة إيجابيّة وأنّ قيمة التّحيّل سلبيّة. فإلى أيّ القيمتين تنتصر المقامة ؟ وهل تحمل فكرا ينتصر للمدينة على حساب الرّيف فتكون بذلك قد أعادت إنتاج السّائد أم هل هي تسخر من المجتمع الجديد، مجتمع الصّيد والصيّاد والغاب ؟ وما هو العمل اللّغويّ الشّامل في هذه المقامة ؟ أهو الإشادة أم هو الإدانة ؟ ألا يكون السّخريّةَ التي تلاحظ أوّل ما تلاحظ في البناء الشّكليّ للمقامة ؟

لقد بناها صاحبها على غرار الحديث. ولكنّ الشّبه بينها وبين الحديث لا يتجاوز الشّكل الثّنائيّ التّركيب وصياغة السّند. فمتنها خال من الجدّيّة وما يُعرض من سلوك على المسلمين من متقبّليها يقودهم مباشرة إلى حيث لا يريدون. وبهذا المعنى تكون المقامة محاكاة ساخرة[57] لمحاكى جادّ له في دنيا المسلمين وأخراهم عظيم شأن.

لقد استخدم الهمذاني الشّكل الموروث استخداما جديدا. وقد يكون مبتدع المقامة إلاّ أنّه لم ينشئها من عدم. ففي شكلها ممّا شاع في عصر الكتابة من أجناس صلات. وفي مضمونها صدى لما حفلت به كتب الأدب من أخبار الشّطّار والمتسوّلين. وفيها من العصر الذي أنتجت فيه سمات وملامح. والمقامة البغداذيّة، موضوعُ تحليلنا، تنشدّ إلى سائر المقامات بأكثر من آصرة. وهذا يحملنا على القول إنّ الهمذاني لا يصوّر واقعا بل يُنتج المختلف داخل المؤتلف أو ينوّع داخل المنوال الواحد. وأيّا يكن العمل اللّغويّ الشّامل في هذه المقامة فإنّ عسر تحديده واختلاف القرّاء على مرّ العصور حول مقاصد تأليف المقامات وما في نصّنا من ثغرات ومسكوت عنه تؤكّد أنّ القارئ، أيّا كان مكانه وزمانه، عنصر من العناصر التّكوينيّة للمقامة.

لقد بيّن التّحليل التّداوليّ أهمّيّة النّظر إلى النّصّ الأدبيّ باعتباره فعلا تواصليّا وأثبت أهمّيّة السّياق في تأويل الكلام وكشف أنّ تجرّد النّصّ من سياق تلفّظه بفعل تباعد الأمكنة والأزمنة بين النّشأة والتّلقّي هو "متعالق الغموض الأساسيّ للأثر الأدبيّ الذي يدوم منغلقا على نفسه وخاضعا لقواعد أكثر إكراها من قواعد اللّغة العاديّة"[58]. وإنّ التّحليل التّداولي يُسهم في تحرّر القراءة من سلطة النّصّ المطلقة[59] ويخلق حوارا حقيقيّا بين الذّات

المنشئة والذّات القارئة. وهو يخلّص النّصّ السّرديّ من بوتقة الدّراسة المحايثة التي سجنته داخلها المدرسة البنيويّة ويحلّ القارئ مكانة ويتيح له استغلال معارفه الموسوعيّة وقدراته الاستدلاليّة

إنّ التّحليل التّداوليّ فتح آفاقا جديدة لتحليل النّصّ السّرديّ التّخييليّ قديمه وحديثه. ووفّر زادا نظريّا مهمّا لدراسة الحوار وبناء الأحداث. ولكنّه، في المقابل، أهمل دراسة الخصائص البنائيّة للخطابين السّرديّ والوصفيّ. واهتمّ بمقاصد القول وأغفل طرائق القول. وقد لفت الانتباه إلى تراكب المقامات في النّصّ السّرديّ. وميّز في النّصّ السّرديّ التّخييليّ ما هو تخييل ممّا ليس تخييلا. ولكنّه ظلّ عاجزا عن التّمييز بين المقام التّخييليّ الرّاوي / المرويّ له والمقام الواقعيّ المؤلّف / القارئ. ولا شكّ أنّ القارئ استراتيجيّة نصّيّة. ولكنّ القول بقارئ نموذجيّ أو مثاليّ يطرح إشكالا. ألا يعني القول بالقارئ النّموذجيّ تسليما بسلطة النّصّ والكاتب ؟ ألا يتعارض مفهوم القارئ المثاليّ مع تعدّد القراءات وتنوّعها وتغيّرها من جيل إلى جيل ومن حضارة إلى أخرى ؟

إنّ القارئ المثاليّ كائن نصّيّ من صنع كاتب واع بما يفعل. أفلا يعني السّعي إلى التّماهي مع هذا الضّرب من القرّاء إنكارَ حقيقة يعلمها الكتّاب ودارسو الأدب وهي أنّ الكتابة تجاوز للذّات وتعبير عن "أنا" عميقة مختلفة عن "الأنا" الواعية بل مناقضة لها أحيانا ؟ ألم يحكم بلزاك في رواياته بالإعدام على طبقة الإقطاع والحال أنّه إقطاعيّ فكرا وملكيّ سياسة ؟ ألم يغيّر كثير من الكتّاب آراءهم في ما كتبوا مجاراة لآراء كبار النّقاد ؟ لقد أغلق الهمذاني، على سبيل المثال، نصّه بمفاتيحه وضمّنه مفاتيح تتفتح بها بعض مغالقه. ولكنّ الأكيد أنّ قراءة من لا معرفة له بالهمذاني ولا بجنس المقامة تظلّ، رغم انغلاق النّصّ على صورة قارئ مثاليّ، منقوصة. ومن الأكيد أيضا أنّ هذه المقامات دُرست من زوايا لم تخطر للهمذاني على بال ووظّفت أحيانا توظيفا قد يعترض عليه لو كان حيّا. ولكنّنا نعتقد أنّه سيكون، في جميع الحالات، سعيدا بمكانة مقاماته لدى القرّاء على مرّ العصور.

الهوامش.

[1] يرى روبول وموشلار أنّ مجرّد فكّ الشّفرات لا يُسلم غير تأويل جزئيّ للجمل[...] فاللّغة تُنتَج وتُؤوّل لا وفق مسار تشفير وفكّ تشفير فقط بل تنتج وتؤوّل أيضا وفق مسارات استنتاجيّة تستند إلى استراتيجيّة المؤوّل وتستغلّ القدرات البشريّة العامّة وغير الخاصّة باللّغة سواء عند الإنتاج أو عند التّأويل. انظر
Anne Reboul et Jacques Moeschler, *La pragmatique aujourd'hui*, Editions du Seuil, p 21, 23.

[2] نفسه، ص 18.

ويمكن أن نضيف في هذا الصّدد أنّ الممارسة تكشف أنّه لا وجود لقانون لغويّ يسمح بفهم صحيح للجمل مهما كانت بساطتها. فإذا قال أحدهم لجالس قرب نافذة مفتوحة شتاءً: "القاعة باردة" فإنّ السّامع لا يمكن له، لو اقتصر على المستويين التركيبيّ والدّلاليّ للجملة، فهمَ المقصد من الكلام. ولذا فهو مدعوّ إلى تقديم افتراضات بشأن الحالة الذّهنيّة لمخاطبه. وبما أنّ من المفروض أن يناسب مقاله المقام فمقصده ليس الإخبارَ عن العالم أي أنّه لا ينتج جملة تقريريّة. وهذا يقود السّامع إلى الاستنجاد بمعارفه والمقام وجميعها غير ذات طبيعة لسانيّة. فيستنتج أنّ ما جاء في شكل تقرير هو، في الواقع، أمر بغلق النّافذة مقنّع. ولا شكّ أنّ الأمر هنا يتعلّق بمعارف اجتماعيّة مشتركة. وقد أوضح روبول وموشلار أنّ هناك حالات كثيرة تكون فيها المعارف المفترضة أو المطلوبة غير اجتماعيّة مثل ردّ ضيف على اقتراح مضيّفه بتقديم قهوة له: "القهوة تمنع عنّي النّوم". فلا وجود لقانون اجتماعيّ أو غيره يسمح بفهم هذا الجواب الذي يحتمل تأويلين أوّلهما " نعم، أريد أن أسهر لأشاهد شريطا يبث في وقت متأخّر" وثانيهما "لا، سأسافر بالسّيّارة إلى مكان بعيد وعليّ أن أنهض باكرا. إذن يجب أن أبكّر بالنّوم".
نفسه، ص 18- 19.

[3] أوّل من استعمل المصطلح هو شارل موريّس (Charles Morris). وكان ذلك سنة 1938. أمّا ميلاد التّداوليّة فيمكن التّأريخ له بالمحاضرة التي ألقاها جون أوستين (John Austin) سنة 1955 بجامعة هارفارد. وعنوانها "*William James lectures*". وقد نشرت هذه المحاضرة سنة 1966 أي بعد موت أوستين بسنتين، نفسه، ص 26.

[4] القائلون بهذا الحدّ هم شارل موريّس ومن سار على دربه. انظر
Catherine Kerbrat-Orecchioni, *l'énonciation de la subjectivité dans le langage*, Librairie Armand Colin, Paris,1980, p.185.

[5] أصحاب هذا التّعريف هم "فلاسفة أوكسفورد" ومن سار على خطاهم. نفسه، ص 185.

[6] يقصي أوستين (Austin) و سيرل (Searle) من دائرة الأعمال المضمّنة في القول الجمل الواردة في خطاب "غير جدّيّ" مثل التّخييل. انظر "*La pragmatique aujourd'hui*"، مرجع مذكور، ص 33.

[7] - Wolfgang Iser, *L'acte de lecture (théorie de l'effet esthétique)*, Traduit de l'allemand par Evelyne Sznycer, Pierre Mardaga , éditeur, Bruxelles, 1985, p. 121.

[8] - Dominique maingueneau, *Pragmatique pour le discours littéraire*, op. cit. p.27.

[9] - Umberto Eco, *Lector in Fabula (Le rôle du lecteur ou la coopération interprétative dans les textes narratifs)*, Traduit de l'italien par Myriem Bouzaher, Grasset, 1985, p. 65.

[10] Dissymétrie

[11] - Dominique Maingueneau, *Pragmatique pour le discours littéraire*, op. cit. p. 18.

[12] Co-énonciateur والمصطلح استعاره منغينو من كوليولي (A. Culioli). وقد استخدمه تأكيدا للبعد الحواريّ لكلّ ملفوظ. نفسه، ص16، 18.

[13] يقول باختين إنّ كلّ خطاب هو خطاب حواريّ (dialogique) موجّه نحو شخص ما قادر على فهمه والرّدّ عليه ردّا حقيقيّا أو ممكناvirtuelle . انظر
Tzvetan Todorov, *Mikhail Bakhtine, Le principe dialogique. Suivi de Ecrits du Cercle de Bakhtine*, Seuil, 1981, p.298.

[14] - Mécanisme.

[15] - Umberto Eco, *Lector in Fabula*, op. Cit. P. 65.

[16] انظر على سبيل المثال المرجع السّابق، ص 75- 82.

[17] محمّد محيي الدّين عبد الحميد، شرح مقامات بديع الزّمان الهمذاني، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الثّانية، بيروت (د.ت)، ص 70- 73.

[18] يبدو الخطاب الأدبيّ بمثابة مؤسّسة ذات طقوس تلفّظيّة تعدّ الأجناس مظاهرها الأجلى. انظر كتاب منغينو (*Pragmatique pour le discours littéraire)* مرجع مذكور، ص 15.

[19] القارئ المتعاون هو قارئ نموذجيّ أي "مجموع شروط نجاح مؤسّسة نصيّا يجب أن تلبّى ليُرهَن المحتوى الكامن في نصّ ما ترهينا كاملا". انظر "*Lector in resup*"، مرجع مذكور، ص 77.

[20] الكفاءة الموسوعيّة هي مجموع المعارف التي يمتلكها شخص ما. وعادة ما تتأسّس على معطيات ثقافيّة مقبولة اجتماعيّا بسبب "استقرارها" الإحصائيّ".
نفسه، ص 17.

ويمكن الحديث عن مخزون معرفيّ مشترك بين كلّ من ينتمي إلى ثقافة معيّنة ومخزون معرفيّ خاصّ اكتسبه فرد ما أو مجموعة من الأشخاص بحكم الدّراسة والاختصاص وغيرهما.

[21] انظر حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التّراث والحداثة، الدّار التّونسيّة للنّشر، سبتمبر 1988، ص 21- 22.

[22] المقتضى (Le resuppose) أنواع منها المقتضى الدّلاليّ وهو معنى مضمر في الملفوظ والمقتضى التّداوليّ من قبيل أنّ التّحيّة توجب ردّا وأنّ من يسأل يجهل ما يسأل عنه.

[23] الأعمال اللّغويّة هي، حسب سيرل (Searle)، الوحدات الأساسيّة أو الوحدات الدّنيا للتّواصل اللّغويّ. وليست مجرّد جمل وإنّما هي ملفوظات كائنة في سياق محدّد. انظر كتاب إيزار (*L'acte de lecture*) ، مرجع مذكور، ص102، 103. أمّا فرضيتها المؤسّسة فهي: أن يتكلم المرء هو، بلا شك، أن يتبادل معلومات ولكن أن يتكلّم هو أيضا أن يقوم بفعل أو عمل محكوم بقواعد مضبوطة وأن يزعم تحويل وضع (Stiuation) المتقبّل وتغيير نظام معتقداته و / أو موقفه السّلوكيّ. وبصفة متعالقة أن يفهم المرء ملفوظا هو أن يتعرّف إضافة إلى محتواه الإخباريّ إلى مقصده التداوليّ أي إلى قيمته المضمّنة في القول وقوّته المضمّنة فيه. انظر "*L'énonciation de la subjectivité dans le langage*"، مرجع مذكور، ص 185.

[24] - Cécile Cavillac, *Vraisemblance pragmatique et autorité fictionnelle*, in *Poétique*, Seuil, février 1995, p. 24.

[25] - Déclaration

[26] - Gérard Genette, *Le statut pragmatique de la fiction*, in *Poétique* n° 78, Seuil, avril 1989, p. 244.

[27] هو راو من خارج الحكاية (Narrateur extradiégétique).

[28] جينات لم يدرس في مقاله السّابق إلاّ السّرد بضمير الغائب.

[29] انظر "*Lector in Fabula* "، مرجع مذكور، ص 27.

ويرى منفينو أنّ كلّ أثر أدبيّ يدفع قارئه إلى مطاردة المضمر أو الضّمنيّ. انظر "*Pragmatique pour le discours littéraire* "، مرجع مذكور، ص 78.

[30] لمحتوى الملفوظ مستويان: مستوى ظاهر هو موضوع التّلفّظ ويسمّى المعطى (Le posé) أو المحتوى القضويّ (Le contenu propositionnel) ومستوى خفيّ يستند إليه المعطى ويسمّى المقتضى Le présupposé. نفسه، ص82.

[31] Le co-texte.

[32] المقتضى الدّلاليّ هو مقتضى مائل في بنية الملفوظ ومستقلّ عن سياقات استعماله. نفسه، ص79.

إنّ المقتضى الدّلاليّ في قولنا "فُتح الباب" هو أنّ الباب كان مغلقا.

[33] العبارتان "ليس معي" و"خرجت" يقتضيان دلاليّا "كنت داخل مكان ما" و"كان معي".

[34] Loi d'intérêt.

[35] - Patrick Charaudeau et Domimnique Maingueneau, *Dictionnaire d'analyse du discours*, Editions du Seuil, Paris, 2002, p. 357-358.

[36] (Règle de relation ou de pertinence) وتقتضي، حسب مستكشفها غرايس (Grice) ، أن يتكلّم الباثّ في صلب الموضوع. نفسه، ص 368.

وصلب الموضوع في هذه المقامة واعتمادا على سندها هو بناء حكاية بطلها عيسى ومحرّكها رغبة في الأزاذ.

[37] ليس المرجع هنا هو العالم الخارجيّ وإنّما هو العالم المصوّر أو الكون المتخيّل.

[38] ترجمنا بهذه العبارة مصطلح أيكو (Nœud de probabilités).

[39] السّيناريو (scénario ou *frame*) هو كما يرى أيكو في "*Lector in fabula*" (ص100) "بنية معطيات تستخدم لتصوير وضعيّة مكرّرة (Stéréotype)". ومن السّيناريوهات الذّهاب إلى حفل راقص أو مراقبة التّذاكر في وسيلة نقل أو مهاجمة مصرف أو اختطاف شخص ما. وعموما فالسّيناريو كما يقول أيكو هو دوما نصّ ممكن أو حكاية مكثّفة. نفسه، ص100.

[40] (Scénarios intertextuels) هي سيناريوهات اطّلع عليها القارئ في نصوص أخرى. وهي عبارة عن "ترسيمات بلاغيّة وسرديّة تنتمي إلى زاد من المعارف منتقى ومحدود لا يتوفّر لدى كلّ الأفراد المنتمين إلى ثقافة ما". نفسه، ص101.

وانظر أيضا كتاب منفينو "، مرجع مذكور، ص 100، 101.

[41] (Scénarios communs) ومن الأمثلة عليها خصومة بين زوجين أو الذّهاب إلى حفل رقص.

[42] تقتضي قاعدة الكمّ (Règle de quantité)، حسب غرايس، أن يقدّم المتكلّم كلّ المعلومات التي يتطلّبها المقام. انظر "*Dictionnaire d'analyse du discours*"، مرجع مذكور، ص 368.

ومن الأمثلة على الإخلال بهذه القاعدة قول أحدهم "شخص ما بالباب" وهو يعرف اسم الطّارق.

[43] انظر وظائف تحيّة الافتتاح لدى

Catherine Kerbrat-Orecchioni, *l'interaction verbale*, tome I, Librairie Armand Colin, Paris, 1990, p. 221-223.

[44] (La face négative) والمقصود بالمصطلح هو شؤون الفرد الحميميّة أو ما يعبّر عنه بالحياض.

[45] يرى أوستين أنّنا ننجز عند النّطق بجملة ما ثلاثة أعمال هي عمل القول (Acte locutionnaire) والعمل المضمّن في القول (Acte illocutionnaire) وعمل التّأثير بالقول (Acte perlocutoire). انظر

J.L. Austin, *Quand dire c'est faire*, traduit de l'anglais par Gilles Lane, Editions du Seuil, Paris, 1970. p. 109- 127.

[46] المقصود بالسّؤال هنا هو السّؤال الحقيقيّ. أمّا السّؤال البلاغيّ فينجز عملا لغويا غير مباشر يختلف باختلاف المقامات.

[47] (La face positive) والمقصود بالمصطلح الصّورة التي يكوّنها الفرد عن نفسه ويودّ أن يعترف بها الآخرون.

[48] لا يمكن الحديث عن عمل لغويّ إلاّ إذا فهم المخاطَب القوّة المضمّنة في الكلام الموجّه إليه. فإذا كدت تختنق صيفا في قاعة مغلقة النّافذة وقلت لشخص جالس قربها "هل بإمكانك فتح النّافذة ؟" وردّ بالإيجاب يكون عملك فاشلا. فأنت في الواقع متأكّد من قدرته العضليّة ولا تسأل عنها وإنّما أردت أن تنجز عملا غير مباشر هو الطّلب.

[49] يرى ديكرو أنّ الكثير من أعمال التلفّظ لها وظيفة حجاجيّة. إمّا الإقناع بأمر ما أو الإقناع بصرف النّظر عنه. ويذهب إلى أنّ لهذه الوظيفة علامات في بنية الملفوظ نفسها. استشهدت به أوريكيوني في "*L'énonciation de la subjectivité dans le langage*"، مرجع مذكور، ص 188.

[50] في رفض المقتضى حكم بالخواء لا على الملفوظ بل على التّلفّظ نفسه. نفسه ص189.

[51] نفسه، ص189.

[52] - Interaction verbale.

[53]- L'informativité et l'exhaustivité

[54] "الذّاكرة السّياقيّة المقاليّة (mémoire cotextuelle) تنمو مع القراءة وتصبح معرفة سياقيّة (connaissance contextuelle)". نفسه، ص206، الهامش 2.

[55] (Contexte situationnel ou paradigmatique) هو "مقام" (Situation) معترف به اجتماعيّا بوصفه متضمّنا لمقصد أو مقاصد عديدة ولمعنى محايث يتقاسمه متخاطبون ينتمون إلى ثقافة واحدة. ومن الأمثلة عليه مرافعة في محكمة أو مفاوضات حول الأجور أو حفل دينيّ أو نقاش داخل برلمان.

Françoise Armangaud, La pragmatique, Collection Que sais-je? PUF, 2ème édition, Paris, 1990, p. 61.

إنّ السّياق المقاميّ لا يختلف عن السّيناريو المقاميّ عند أيكو.

[56] جورج ماي، السّيرة الذّاتيّة، تعريب محمّد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج (تونس)، 1992، ص68.

[57] - Parodie

[58] - Dominique Maingueneau, *Pragmatique pour le discours littéraire*, op. cit. p.27.

[59] يقول أيكو بعد أن حلّل مقاطع سرديّة إنّ النّصّ يبني قارئه وإنّه آلة أقلّ كسلا ممّا يبدو وأنّ دعوته التّعاونيّة أقلّ ليبراليّة ممّا يوحي به إلى قارئه. فالنّصّ، في نظره، يقوم على كفاءة. ولكنّه يساهم أيضا في إنتاجها. انظر كتابه (*Lector in fabula*)، مرجع مذكور، ص 68.